

ملخص

حاز القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي من ذبوع الصبوت وجهارة الشأن ما لم يحزه غيره من فقهاء المدرسة العراقية، ذلك أن شهرته تجاوزت حدود موطنه وبلده إلى آفاق من الدنيا واسعة متراحية، هشت لفقهه، وبشت لأثاره، حتى أصبح حجة في الفقه المالكي، ومرجعاً يعول عليه في الفتاوى وأحكام الحلال والحرام، فمن أهل الأندلس والمغرب وإفريقية فقهاء كباراً أفسحوا للقاضي حيزاً غير يسير في مروياتهم وكتبهم، ومنهم من أخذ عنه وسمع منه مباشرة، ومنهم من حمل عن أصحابه وتلامذته، ومنهم من اتصل سنده في الرواية به. ويتناول هذا المقال شخصية القاضي عبد الوهاب ومدرسته البغدادية، وعلاقته بعلماء المالكية بالمغرب والأندلس، والصور والمشاهد التي أنتجت هذه العلاقة.

مقدمة

يعتبر الفقيه المالكي عبد الوهاب البغدادي من أبرز الوجوه اللامعة التي تركت بصمة واضحة في علاقة المدرستين المالكيتين بالمغرب والمشرق، ورسخت عرى التواصل العلمي والتبادل المعرفي بينهما. فرغم خصوصيات المدرستين، فإنهما تلتقيان في مرجعية المذهب المالكي، وهو ما ولد صلات وطيدة بين الشيخ المذكور وأقطاب الفكر المالكي بالمغرب والأندلس، وأفرز مناخاً من التحوار والأثر والتأثير. وتهدف هذه السطور إلى تسليط الضوء على مجموعة من المشاهد التي تعكس علاقة الشيخ المنوّ به بمجموعة من علماء المالكية بالغرب الإسلامي. وقد تنوعت تلك المشاهد بين المشيخة حيث تتلمذ على يدي الشيخ البغدادي ثلة من علماء المغرب والأندلس الذين أعجبوا بعلمه، فشددوا الرحال إليه أو تلقوا عنه الأسانيد، كما عملوا على تدريس كتبه التي عرفت رواجاً منقطع النظير، بل بلغ إعجاب المغاربة بالقاضي عبد الوهاب أن جعلوه مرجعاً في الفتاوى التي أصدروها، واستمر حضوره في مؤلفاتهم وشروحهم حتى بعد وفاته. كما انبرى بعضهم لترجمة سيرته، وكلها صور تعكس التلاقح والتواصل الفكري بين مالكية المغرب والمشرق.

أولاً: القاضي عبد الوهاب البغدادي ومدرسته المالكية بالراق

هو أبو محمد عبد الوهاب بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون البغدادي، قطب المدرسة المالكية بالعراق، و"أحد من صرّف وجوه المذهب المالكي بين لسان الكناني ونظر اليوناني، فقدر أصوله، وحرر فصوله وقرر حمله وتفصيله"^(١) وعلى الرغم من كثرة المصادر التي ترجمت له، فإن معظمها قد طواه الزمن، وما بقي منها يتسم بالشح والتقتير، باستثناء ما خصه به ابن بسام من ترجمة مطولة، لكن معظمها اكتفى بتغطية مناحيه الشعرية. ومن تلك التراجم المقتضبة، يمكن الإشارة إلى سنة ميلاده التي حددها المترجمون لحياته في عام ٣٦٢ هـ ببغداد التي درس فيها ودرّس بها، وتولى القضاء بالدينور، ثم هاجر بعد ذلك تحت ضغوطات



صلات الفقيه المالكي عبد الوهاب البغدادي بفقهاء المغرب والأندلس

"حلقة من حلقات التواصل بين المدرستين المالكيتين في المغرب والمشرق"

أ. د. إبراهيم القادري بوتشيش

أستاذ التاريخ الإسلامي – كلية الآداب
جامعة مولاي إسماعيل
مكناس – المملكة المغربية



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إبراهيم القادري بوتشيش، صلات الفقيه المالكي عبد الوهاب البغدادي بفقهاء المغرب والأندلس: حلقة من حلقات التواصل بين المدرستين المالكيتين في المغرب والمشرق. - دورية كان التاريخية. - العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٨٥ - ٩٠.

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 - 0449

خمس أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٢

وقد بلغ عدد فقهاء المدرسة المالكية البغدادية ما ينيف عن ١٣٠ رجلاً شغلوا ثمان طبقات كان آخرها طبقة تلامذة القاضي عبد الوهاب. وكانت هذه المدرسة مصدرًا للوهج العلمي، ولتخريج المنظرين في المذهب. بيد أن القاضي عبد الوهاب كان - دون مدافع - محطة مشعة في مسارها العلمي، وإليه يعزى الفضل في ربط المدرستين المالكتين في المغرب والمشرق.

ثانيًا: مراقبة القاضي عبد الوهاب بعلماء المالكية بالمغرب والأندلس

(١) علاقة تقدير ومحبة متبادلة:

من الملفت للنظر أن الفقهاء المغاربة والأندلسيين كانوا يكونون تقديرًا عظيمًا واحترامًا عميقًا للقاضي عبد الوهاب البغدادي؛ ولا غرو فقد اعتبره الفقيه المغربي الونشريسي (ت ٩١٤هـ) من بين الأئمة المجديدين الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة لتجديد دينها وإصلاح أحوالها، فعده من هؤلاء الأئمة المجديدين الذين جاءوا على رأس المائة الرابعة.^(١٠) بينما وصفه النباهي وهو من قضاة الأندلس المتميزين بعبارات تعكس هذا التقدير حيث قال: "ومن أعلم العلماء وصدور القضاة والرواة الشيخ الفقيه المالكي، أبو محمد عبد الوهاب بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون البغدادي".^(١١) وبلغ من تبجيل علماء المغرب والأندلس لهذه الشخصية ما جعلهم أحيانًا يكتفون بالاعتماد عليه في فتاواهم دون غيره، وهو ما يبدو واضحًا من خلال ما لخصه الونشريسي بقوله: "ونقله هؤلاء الأتباع الجلة - يقصد فقهاء المغرب - عن عبد الوهاب فقط".^(١٢) ولا شك أن التفرد بالنقل عن هذا العلامة ما يهض قريضة على التقدير الذي كان يكتنه علماء المغرب له، باعتباره حجة لا تضاهيها حجة بعده.

ولا ريب أن المكانة العلمية التي اكتسبها القاضي عبد الوهاب كانت وراء هذا التقدير الذي كان يكتنه له علماء الغرب الإسلامي. حسبنا أنه كان محط عناية وإكرام المغاربة حتى أن طائفة من العلماء المغاربة المستقرين في مصر استقبلوه بعد خروجه من بغداد ووصلوه إلى مصر بحفاوة وتقدير، وكان آنذاك في شدة وضيق الحال - حسب بعض الروايات - ، فأخذوا بيده وساعدوه على تجاوز تلك الظرفية الصعبة. وفي هذا السياق يشير ابن كثير^(١٣) إلى أن المغاربة "أعطوه ذهبًا كثيرًا، فتموّل جدًّا"، وهو نص يشي بالمكانة السامية التي كان يحتلها الشيخ البغدادي في صدور العلماء المغاربة وتقديرهم الكبير له.

ولم يكن هذا التقدير من جانب واحد، بل إن الشيخ المذكور كان بدوره يبدي إعجابًا بتلامذته المغاربة والأندلسيين، ويكن المحبة لأهل المغرب والأندلس. حسبنا أنه ألف شرحًا حول رسالة أبي زيد القيرواني حسبما ورد في المدارك، وهو ما زاد من ترسيخ عرى المودة بينه وبين أبي أبي يزيد القيرواني المالكي مؤلف الرسالة حتى أنهما خاطباه - عندما كان مقيمًا في مصر - في القدوم والاستقرار بالقيروان.^(١٤)

وإكراهات إلى مصر التي بلغت فيها شهرته عنان السماء، فنشط في سلك التدريس بها، وكانت له مراسلات مع حكامها حصل من خلالها على نصيب من الحرية الفكرية،^(١٥) وبها استقر إلى أن وافته المنية سنة ٤٢١ أو ٤٢٢ هـ على اختلاف الروايات.^(١٦) وكان فقيهًا أصوليًا متمكنًا بقواعد المذهب المالكي، بارعًا في الجدل والمناظرات،^(١٧) حتى أن شيخه أبا بكر الباقلاني قال في حقه: "لو اجتمع في مدرستي أبو عمران وعبد الوهاب لاجتمع علم مالك: أبو عمران يحفظه، وعبد الوهاب ينصره".^(١٨)

ويستخلص من نصوص التراجم الأخرى أنه كان عالمًا موسوعيًا جمع بين علم الفقه وعلم الحديث، بل برع حتى في نظم الشعر، وهو ما جعل البعض يصنفه في خانة الأدباء.^(١٩) وقد تخرج على يديه العديد من العلماء الذين طارت شهرتهم في الآفاق، نذكر من بينهم أبو علي الصديفي شيخ القاضي عياض المعروف بابن أبي سكرة، وعبد الحق الصقلي، ويعي بن إبراهيم اللواتي، وأبي العباس بن قشير الدمشقي، وغيرهم من علماء المشرق والمغرب. كما ترك عددًا كبيرًا من المصنفات التي ذاع صيتها، وأصبحت تدرّس في طول بلاد الإسلام وعرضها.

وعلى الرغم من أن عصره شهد ذروة الانقسات السياسية والتفتت على شكل إمارات مستقلة، وظهور قوى شيعية طامعة في اقتناص الخلافة، وشحوب دور السلطة المركزية في العصر العباسي، وسيادة الإقطاع العسكري المنحط على المستوى الاقتصادي، فإن الأوضاع العلمية لم تتأثر بهذا الوضع العام، بل على العكس من ذلك، كان ثمة عوامل محفزة على النهضة العلمية، لعل أهمها يتجلى في تأسيس المدارس النظامية، وانتشار الكتب بفضل رخص صناعة الورق، وما نجم عن كل ذلك من انتشار للمناظرات العلمية بين مختلف الفرق والأديان والفقهاء والنحويين وتشجيع الأمراء البويهيين لمثل هذه المناظرات.^(٢٠) ومن الراجح أن هذا المناخ العلمي قد أمد الفقيه عبد الوهاب البغدادي بطاقة علمية جبارة جعلته أحد الأدمغة الكبرى في عصره، وشجعتة على البذل والعطاء في المجال العلمي حتى صار رمزًا من رموز المدرسة المالكية في العالم الإسلامي برمته.

والجدير بالإشارة؛ أن المدرسة المالكية العراقية التي ينتهي إليها القاضي عبد الوهاب لعبت دورًا مركزيًا في إشاعة العلم والذّب عن المذهب منذ عهد تلامذة الإمام مالك من أمثال ابن الماجشون، وأبي مصعب الزهري، وإسماعيل القاضي، إلى عهد القاضي عبد الوهاب، ثم تلامذته الذين حملوا مشعل المذهب بعده قبل أن ينقرض الفرع البغدادي من هذه المدرسة ليتجدد بعد ذلك على يد علماء القرن الثامن الهجري كابن عسكروطيقته.^(٢١) ويستشف من النصوص أن هذه المدرسة عرفت قبل ظهور القاضي عبد الوهاب انكماشًا وانكفاء على صعيد الاجتهاد إلى أن بعث فيها هذا الأخير الحيوية وضخها بدم جديد، وهو ما يفهم من قول ابن بسام: "ونهج فيه - المذهب المالكي - سبيلًا كانت قبله طامسة المنار، دراسة الآثار".^(٢٢)

راجت معظم مؤلفاته بهذه المنطقة من العالم الإسلامي، وأصبحت تشكل حجر الزاوية في المناهج الدراسية بها. وقد دخلت عن طريق تلامذته الذين رحلوا إليه، وسرعان ما انتشرت كالنار في الهشيم، واستطاع مالكية الأندلس أن يطوروا بها مناهجهم.

في هذا المنحى، يذكر القاضي عياض^(٢٠) في ترجمة شيخه ابن أبي سكرة أنه سمع منه العديد من المصنفات، وخاصة كتاب "تلقين المبتدئ" للقاضي عبد الوهاب. ومن جهته، يذكر ابن عطية^(٢١) في ترجمة الفقيه أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الأموي صاحب الشورى بقرطبة أنه درس على أحد المشايخ الذي أخبره بمؤلفات أبي محمد القاضي عبد الوهاب. ولعل ورود مصطلح "مؤلفات" بصيغة الجمع وليس المفرد، دليل على رواج مجموعة كبيرة من كتب القاضي عبد الوهاب في الأندلس.

وفي نفس السياق، يسرد النباهي عناوين مؤلفات القاضي المذكور التي كانت رائجة في الأوساط الثقافية، من بينها كتاب "التلقين"، وكتاب "شرح الرسالة والنصرة لمذهب دار الهجرة"، و"كتاب المعونة"، و"أوائل الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الملة"، وكتاب "الإشراف على نكت مسائل الخلاف"، وكتاب "الإفادة في أصول الفقه"، ثم كتاب "التلخيص" وغيرها من الكتب، مما ينم عن كثرتها وشهرتها ورواجها في أوساط المغاربة والأندلسيين حيث كانت معتمدهم في الدراسة والتلقيين.^(٢٢)

بيد أن الأمر الراجح هو: أن كتابه "التلقين" كان من أكثر الكتب رواجاً في المغرب والأندلس حتى أن بعض علماء الأندلس انقطعوا له انقطاعاً كلياً، نذكر من بينهم عبد الرحمن بن عبد الله بن منثيل الذي شغف حباً بهذا الكتاب، حتى أنه كان يحفظه عن ظهر قلب، وقد عبّر عن مشاعره وعلاقته به في هذين البيتين:

سأقطع بنفسي عن علانق جمة وأشتغل بالتلقين نفسي وباليها
وأجعله أنسي وشغلي وهمتي وموضع سري والحبيب المناجيا^(٢٣)

ولم يقتصر الأمر على الإعجاب بالكتاب وقراءته والاشتغال به، بل بذل علماء المغرب والأندلس جهداً محموداً في شرحه أو التقييد عليه، ويكفي أن نذكر أن أحد علماء تلمسان صنف شرحاً لكتاب التلقين في عشرة مجلدات.^(٢٤) ويبدو أن شهرة هذا الكتاب ورواجه في الوسط الثقافي المغربي – الأندلسي، إنما يعزى إلى طبيعة طرحه العلمي والتبسيط المنهجي للمذهب المالكي، ولا غرو فإنه يعتبر أنموذجاً لمختصرات المالكية المستوعبة لفقه الإمام مالك، والمتميزة بالوضوح والأسلوب السهل غير الممتنع عن الفهم والإدراك. ولا شك أن عنوانه "تلقين المبتدئ" قرينة على ما نذهب إليه.

حسبنا أن الرعيل الأول ممن أخذوا عن القاضي عبد الوهاب كانوا يجعلون هذا الكتاب بفضل طبيعته المنهجية المبسطة مرجعاً أساسياً في التدريس، ففيه يقرأون وبه يروون ويجيزون. والقول نفسه ينسحب على كتابي "المعونة على مذهب عالم المدينة" و"الإشراف على مسائل الخلاف" اللذان عرفا بدورهما رواجاً منقطع

ومما ينهض قرينة أيضاً على تقديره لعلماء المغرب، أنه بعد رحيله عن بغداد واستقراره في مصر، عقد العزم على القدوم للمغرب، لولا أنه زهد فيه عندما وصفت له أوضاعه السياسية، وفضل بدلاً من ذلك الأندلس التي كان يعتزم الاستقرار فيها نهائياً، "وقد كان خاطب فقهاء القيروان ورام القدوم على الأندلس. وكتب أيضاً في ذلك إلى مجاهد الموفق صاحب دانية فعالجته منيته وتوفي بمصر في شعبان سنة ٤٢٢ هـ".^(٢٥)

من خلال القرائن السالفة الذكر يتضح: أن علاقة القاضي عبد الوهاب البغدادي بعلماء المغرب والأندلس كانت مبنية على التقدير والاحترام والمحبة المتبادلة من خلال عدة مؤشرات أبرزها:

- تقدير العلماء المالكيين بالمغرب والأندلس له، وتفانيهم في إكرامه والاعتماد عليه في رصيدهم المعرفي.
- اهتمام القاضي عبد الوهاب بفقهاء الغرب الإسلامي، وشرحه لبعض مصنفاتهم في الفقه المالكي.
- عزمه على الإقامة بين ظهرانيهم في الأندلس، لولا أن المنية اخترته قبل تحقيق أمنيته.

(٢) تتلمذ المغاربة والأندلسيين على يد القاضي عبد الوهاب البغدادي:

تتمثل الصورة الثانية من صور الصلات التي جمعت القاضي عبد الوهاب البغدادي بعلماء المغرب والأندلس في تتلمذ مجموعة منهم على يديه. فثمة إشارات تشير إلى أن العلماء المغاربة والأندلسيين شدوا الرحال إليه سواء عندما كان مقيماً في بغداد، أو عندما استقر في مصر. وفي هذا الصدد سجل القاضي عياض^(٢٦) حضور العلامة المغربي أبو عمران الفاسي الغفجومي في المجالس العلمية التي كان يعقدها القاضي عبد الوهاب في مصر. فبعد أن رحل أبو عمران إلى العراق ودرس الأصول على يد أبي بكر الباقلاني، مرّ بمصر فسمع من القاضي عبد الوهاب. وفي نفس المنحى ذكر النباهي^(٢٧) أن جماعة من أهل الأندلس من بينهم القاضي ابن شماخ الغافقي ومهدي بن يوسف تفقهوا على يديه. بينما يذكر ابن عطية^(٢٨) في ترجمة الفقيه المقرئ أبو الحسين يحيى بن إبراهيم بن أبي زيد المرسي أنه رحل سنة ٤٢١ هـ إلى مصر، فالتقى هناك بالقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي، وسمع منه كتاب التلقيين. كما رحل إليه الفقيه الأندلسي ابن أبي سكرة شيخ القاضي عياض، وسمع منه مصنفاته.^(٢٩)

والراجح أن رحلة العلماء المغاربة نحو هذا الشيخ دليل على سمو مكانته العلمية، وقرينة على نظرة التقدير العلمي التي كان يكنها له المغاربة، حتى أنهم كانوا يتجشمون عناء الرحلة ومخاطرها في سبيل الارتواء من فيض نبعه.

(٣) رواج مؤلفات القاضي عبد الوهاب وتدريسها

بالمغرب والأندلس:

نظراً للمكانة العلمية التي كان يتبوأها القاضي عبد الوهاب البغدادي، والاحترام الذي كان يكنه له أهل المغرب والأندلس، فقد

النظير، ومن خلالهما ذاع صيت القاضي عبد الوهاب في ربوع المغرب والأندلس، وتعددت أسانيد رواياته.^(٢٥)

ومن الملفت للانتباه أن كتابات المغاربة والأندلسيين لم تقتصر على إظهار الجوانب الفقهية المتميزة عند القاضي عبد الوهاب فحسب، بل أسهمت في إبراز الجانب الشعري في شخصيته العلمية، فقد أورد محمد بن عياض مجموعة من الأبيات الشعرية الغزلية التي نظمها القاضي المذكور في صباه.^(٢٦) ومن جهته أبرز أبوه القاضي عياض شاعرية القاضي عبد الوهاب في الرواية التي ذكر فيها أن هذا الأخير دخل قرية تدعى أسعد من بلاد الكرد بالقرب من جبل الجودي، فحلَّ ضيفاً على ابن علون رئيس القرية، ووجد عنده مجموعة من الشعراء ينشدونه شعراً في كل فصل من فصول السنة، فعرض أشعارهم على القاضي عبد الوهاب. وفي أحد الأيام تعمّدوا التقليل من مكانته، وقدموا الرئيس عليه ليحبسوا ما إذا كان يحسن الشعر، فنظم شعراً طويلاً من البحر الكامل^(٢٧) نقّبتس منه هذه الأبيات:

يا شاعراً ألفاظه في نظمها دررا غدت وزبرجدا وزمردا

خذها فقد نسّقتها لك ساهرا فيها وحق لمثلها أن يؤخذ

حتى تظل تقول من عجب بها من قال شعرا فليقله هكذا

وقد أفاض ابن بسام في الترجمة التي خص بها القاضي عبد الوهاب في إبراز إبداعاته الشعرية ووصفها بقوله "وجدت له شعراً معانيه أجلى من الصبح، وألفاظه أحلى من الظفر بالنجج"،^(٢٨) وخصص لقصائده عدة صفحات.

من خلال ما تقدم؛ تتضح صلة القاضي عبد الوهاب البغدادي بعلماء المغرب والأندلس سواء عن طريق إبراز هؤلاء لمختلف الجوانب الثقافية المكونة لشخصيته العلمية، أو من خلال سرد أخبار رحلة علماء الغرب الإسلامي إليه، أو سرد مؤلفاته في الفقه المالكي وقصائده الشعرية.

(٤) اهتمام علماء المغرب والأندلس بكتابة سيرة القاضي عبد الوهاب البغدادي:

يتجلى المشهد الرابع من صلة القاضي عبد الوهاب بعلماء المغرب والأندلس في اهتمام هؤلاء بترجمة حياته والاهتمام بذكر مؤلفاته، فضلاً عن سرد جزئيات أخرى من شخصيته، قد لا توجد في مصادر أخرى تناولت سيرته؛ ولا غرو فقد أورد النباهي ترجمته ضمن قائمة القضاة الذين ترجم لهم، فذكر أنه درس على يد العلامة علي بن أبي بكر الباقلاني، وأنه تولى القضاء بعده بعدة مواضع ومنها الدينور التي علا فيها كعبه وشاع في الآفاق ذكره،^(٢٩) ووصفه بأنه كان فقيهاً متأدباً، وأنه خرج في آخر عمره إلى مصر، فحصل له حال من الدنيا، كما ذكر شيوخه وتلامذته. ومن جهة أخرى؛ أورد لنا هذا القاضي الأندلسي في ثنايا الترجمة التي خصصها للقاضي عبد الوهاب أسباب خروج هذا الأخير من بغداد، موضحاً أنه نقل عنه كلام قاله في الشافعي وطلب لأجله، فخرج مضطراً عنها نحو مصر،^(٣٠) كما بينّ الفكرة التي كانت تراوده في الاستقرار بالأندلس

كما سلف الذكر.^(٣١) وإذا كان قد حدّد سنة وفاته في ٤٢٢هـ، فإن ابن عطية وهو فقيه مغربي عاش في عصر الموحدين أورد في ترجمته للقاضي المذكور أنه توفي سنة ٤٢١هـ.^(٣٢) كما اهتم ابن بسام^(٣٣) بسيرته فوصفه بـ "ناصر دين المالكية"، وأبرز علو كعبه ونبوغه في حقل الشعر. وعزا أسباب هجرته من بغداد إلى مصر في افتقار حاله، وغلاء المعيشة فيها.

ويبلغ أوج اهتمام المغاربة بسيرة القاضي عبد الوهاب، من خلال ما قاموا به من تصحيح للمعلومات التي وردت خطأ عنه في مصنفات كتاب آخرين، وهو ما سعى إليه القاضي عياض السبتي (ت ٥٤٤هـ) حين صحّح كلام الشيرازي في كتاب التعريف الذي زعم فيه أن القاضي عبد الوهاب رأى أبا بكر البصري، دون أن يسمع منه شيئاً، في حين أن الصواب كما ورد عند القاضي عياض أنه حدّث عنه إجازة.^(٣٤)

وإلى جانب النباهي وابن عطية وابن بسام، نجد جماعة من كتاب التراجم المغاربة والأندلسيين يترجمون للقاضي عبد الوهاب، نذكر من بينهم محمد بن عياض بن القاضي عياض سالف الذكر الذي عرض له في كتاب "التعريف بالقاضي عياض".^(٣٥) كما ترجم له ابن فرحون في "الديباج المذهب"،^(٣٦) وعرض لسيرته كل من ابن الأبار في كتابه التكملة^(٣٧) وابن عبد الملك في الذيل والتكملة.^(٣٨) وكل هذه النماذج تعكس مدى علاقة القاضي عبد الوهاب بفقهاء المغرب والأندلس حيث ظل اسمه منحوّثاً في الذاكرة المغربية والأندلسية.

(٥) اعتماد الفقهاء المغاربة والأندلسيين على فتاوى القاضي

عبد الوهاب:

شكلت فتاوى القاضي عبد الوهاب مرجعاً أساسياً لفقهاء المغرب والأندلس ممن عاصروه ومن لم يعاصره، وحسبنا أن الفقيه المغربي الونشريسي اعتمد اعتماداً كبيراً على كتابيه "المعونة" و"الإشراف" لإصدار مجموعة من الفتاوى.^(٣٩) فمن خلال تصفح مجموعة من النوازل والفتاوى الواردة في كتاب المعيار، يتضح اعتماد الونشريسي وغيره من علماء المغرب والأندلس على هذا القاضي، ويمكن تلمس ذلك عبر النماذج الآتية:

١/٥- في مجال العبادات والمعاملات:

أورد الونشريسي ما ذكره ابن الماجشون في فتوى نقلها ناقل عن القاضي عبد الوهاب في مسألة الرجل المسلم الذي يشتري ثوباً ذمي، هل يستوجب ذلك غسله والصلاة به. فجاء نص جواب الفتوى مطابقاً لما أفقّى بها القاضي عبد الوهاب من أن الثوب إذا كان رقيقاً يفسده الغسل، فإن ذلك لا يستلزم غسله، ويمكن للمسلم أن يصلي به.^(٤٠) ولعلّ هذه الفتوى تبرز مراعاة القاضي المذكور ضرورة المزج بين المحافظة على أحكام الشريعة ودفع الضرر عن المسلم.

من جهة أخرى؛ نجد فقيهاً مغربياً آخر وهو سيدي محمد بن مرزوق يعتمد بدوره على حكم القاضي عبد الوهاب في أن الجمع

الإسلام هل يردون إلى أصحابهم، وهو ما يتجلى في قول هذا الفقيه المغربي: "فإني رأيت في المعونة وفي الإشراف لعبد الوهاب في كتاب الجهاد حين ذكر أخذ المسلمين رهائن من المشركين، وأسلموا بين أيدينا أنا نردهم إليهم، ولا يجوز لنا حبسهم خلافاً لمن أبى ذلك ما نصه، ولأننا إذا لم نردهم لم نأمن من غدرهم بالمسلمين لأنهم إنما يهتمون ما داموا على دينهم"^(٤٥) وواضح من هذه الفتوى أن القاضي عبد الوهاب كان بعيد النظر، مراعيًا مصلحة المسلمين، فضلاً عن روح الاحتياط والحذر من الغدر بالمسلمين أكثر من الاهتمام بأسر مجموعة من أفراد العدو الذين بإمكانهم أن يلعبوا دورًا مخربًا يضر بمصلحة الجماعة الإسلامية.

وفي نازلة أخرى، استند الونشريسي إلى حكم القاضي عبد الوهاب في مسألة هامة تتعلق بإمكانية المسلمين القيام بشن غارات على أطراف مراكز العدو الذي دخل معه السلطان المسلم في صلح، مع بقاء بعض المناطق الساحلية في يد العدو. فكان جواب النازلة - اعتمادًا على رأي القاضي عبد الوهاب - جواز الجهاد،^(٤٦) وهو جواب يدل على الحس المرهف الذي كان يشعر به هذا الأخير تجاه أمتة الإسلامية، والترجمة الأمينة لمشاعر المسلمين تجاه العدو النصراني، ولو كان في حالة صلح مع سلطان المغرب.

٣/٥- في مجال المعاملات الاقتصادية والاجتماعية:

من بين المشاكل الاجتماعية التي كانت تُطرح في الأسواق المغربية خلال العصر الوسيط، مسألة البيع بالغبن، أو البيع المضغوط الذي يكون البائع ضحيته نتيجة إكراهات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، وهي المسألة التي تعرض لها فقهاء المغرب والأندلس، وأفردوا لها أبوابًا خاصة تشمل مجموعة من الأحكام التي صيغت حفاظًا على مصلحته. وفي هذا الصدد شكلت كتب القاضي عبد الوهاب مرجعيات أساسية لفقهاء المغرب؛ ولا غرو فقد أحال عليه الونشريسي حين تعرض لمسألة البيع بالغبن، ورجع إلى كتاب "المعونة" الذي أورد فيه قيام بعض الباعة البغداديين بالغبن المسترسل.^(٤٧) وبالمثل اعتمد عليه كذلك في مسألة خلط الزيت والخل والعسل واللبن، حيث جَوِّزَ هذا الخلط ما لم تكن نتيجته تؤدي إلى حالة السكر.^(٤٨)

وفي نفس المجال - مجال المعاملات الاجتماعية - استعان الونشريسي بالقاضي عبد الوهاب في تحريم وصل الشعر عند المرأة، ووصل الشعر معناه أن تقطع امرأة جزءًا من شعر رأسها، وتعطيه لامرأة ثانية. وقد برز منعه - استنادًا إلى حكم القاضي عبد الوهاب - الذي اعتبره ضربًا من التدليس.^(٤٩)

من حصاد هذه المجموعة من النوازل التي اعتمد فيها الونشريسي وغيره من فقهاء المغرب والأندلس على القاضي عبد الوهاب، يتضح مدى الثقة التي وضعها فيه هؤلاء. كما أن إحالاتهم على أجوبته وأحكامه تدل على ما كان يتمتع به من مكانة علمية وأمانة لم تكن موضع شك لديهم، وتعكس في الوقت نفسه الصلة

بين الصلاتين في السفر لا يختص بالمسافة الطويلة، علمًا بأن مجموعة من علماء الغرب الإسلامي كانوا قد سبقوا سيدي محمد بن مرزوق في اعتماد نفس حكم القاضي عبد الوهاب كالفقيه الباجي وابن محرز واللخمي.^(٤١) ولعلَّ إجماع المشايخ المغاربة على أحكام هذا القاضي واستقاء فتاواهم منه دليل على رسوخ قدمه ومكانته في مجال الإفتاء من جهة، وحجة على الصلات التي كانت تجمعهم بهذا الشيخ البغدادي.

وفي مجال العبادات، دائمًا طُرحت في نوازل المغاربة قضايا أخرى تم الاستناد فيها على القاضي عبد الوهاب، نذكر من بينها استناد الفقيه الونشريسي على فتواه حول عدد البيوتات التي تستلزم إقامة صلاة الجمعة داخل قرية معينة، فبعد أن يَبَيَّن حكم الإمام مالك الذي يرى أن "الجمعة لا تجب إلا في القرية الكبيرة المتصلة بالبنان التي فيها الأسواق"، يردف إلى هذا الحكم حكم القاضي عبد الوهاب بأن معيار وجوب إقامة الجمعة في قرية من القرى، تستلزم أن يكون أهلها من العدد الذي يمكنهم الثواء وتتقرى بهم القرية.^(٤٢)

وفي موضع آخر من كتاب المعيار، تم الاعتماد على القاضي عبد الوهاب أيضًا في نازلة تدور حول إمكانية إقامة الجمعة في جامعين بمدينة بسطة الأندلسية، فكان الجواب على النازلة يسير في اتجاه المنع، اعتمادًا على أحكام القاضي عبد الوهاب. ويورد الونشريسي الحجة التي استدلل بها القاضي عبد الوهاب حول هذا المنع من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقيم الجمعة إلا في مسجد واحد، ولو جازت في أكثر لبيته صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً.^(٤٣)

ورغم طول باع ابن رشد الجد في مجال الفقه المالكي، فقد كان بدوره يحيل على القاضي عبد الوهاب ويعتبره أقواله في "التلقين" حجة ينبغي الاستناد إليها، لذلك لم يتجاوز دوره مستوى شرح أقوال القاضي عبد الوهاب، ومنها على سبيل المثال ما ورد عنده في سؤال طرح عليه وطلب منه توضيح حول ما ذكره الشيخ البغدادي في الخصال التي تفسد الصلاة، فشرح بتفصيل ما أجمله القاضي المذكور في كتاب "التلقين".^(٤٤)

وتجدر الإشارة إلى: أن صاحب "المعيار" أورد أيضًا فتاوى لابن بشتغير، ولابن الحاج وغيرهم من فقهاء المغرب والأندلس حتى عصره (القرن ٩ هـ)، وجل هؤلاء الفقهاء كانوا يحيلون على القاضي عبد الوهاب البغدادي، مما يمكن اعتباره مرجعًا أساسيًا لا غنى عنه في التراث الفقهي للغرب الإسلامي. ويمكن الرجوع إلى تلك النوازل المتناثرة في "المعيار" للاستفاضة في الموضوع.

٢/٥- في مجال العلاقات مع "دار الحرب":

شكلت العلاقات بين "دار الإسلام"، و "دار الحرب" اهتمامًا واسعًا في أوساط فقهاء المغرب والأندلس، وكثيرًا ما أثارت هذه العلاقات إشكاليات معقدة طرحت عليهم، فكانوا يستأنسون بفتاوى القاضي عبد الوهاب البغدادي، من ذلك على سبيل المثال اعتماد الونشريسي عليه في مسألة الرهائن المشركين الذين يدخلون

العلمية التي كانت تربط هؤلاء بعمدة المدرسة المالكية القاضي عبد الوهاب البغدادي.

خاتمة

خلاصة القول؛ أن القاضي عبد الوهاب البغدادي جسد إحدى حلقات التواصل بين المدرستين المالكتين في المشرق والمغرب، نتيجة تتلمذ مجموعة من أقطاب المذهب المالكي بالمغرب والأندلس على يديه، وانتشار مؤلفاته بهذه الأصقاع، واستعمالها في مجال التدريس، أو كمصادر كان يعتمد عليها القضاة المالكيون المغاربة والأندلسيون في إصدار أحكامهم وأجوبتهم، حتى أن فتاوى القاضي عبد الوهاب أصبحت مرجعيات لا محيد عنها، خاصة في النوازل التي كان يستعصى حلها بسهولة.

ولا يمكن تقدير وزن العطاء الذي ساهم به في تطوير المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلا من خلال معاينة رصيد التراث الفقهي المتراكم الذي خلفه فقهاء المالكية بالمغرب والأندلس، والذي ينطق بمدى التأثير المالكي المشرقي في المدرسة الفقهية المالكية بالغرب الإسلامي، ويثبت بصمات القاضي عبد الوهاب البغدادي في تطويرها، وهو وَرَثٌ سيظل يفتح دائمًا شعبة الباحثين، ويشي بالجديد والقابلية للبحث المستمر.

الهوامش:

- (١) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان ١٩٧٩، ق، ٤، مج ١، ص ٥١٥.
- (٢) المصدر نفسه، ص ٥٢٠-٥٢١.
- (٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٧، ج ٣، ص ٢٢٢. ويجعل ابن عطية سنة وفاته في ٤٢١ هـ، انظر: فهرست ابن عطية، تحقيق محمد أبو الأجناف ومحمد الزاهي، بيروت ١٩٨٠ (ط ١)، دار الغرب الإسلامي.
- (٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مكتبة الغانجي المكتبة العربية ببغداد، القاهرة ١٩٣١، ج ١١، ص ٣١.
- (٥) القاضي عياض، ترتيب المدارك، تحقيق سعيد أعراب، فضالة - المحمدية ١٩٨١-١٩٨٣، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج ٧، ص ٢٤٦.
- (٦) ابن بسام، الذخيرة...م.س.، ق، ٤، مج ١، ص ٥١٥.
- (٧) شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، القاهرة، دار المعارف، ص ١٢٤.
- (٨) إدريس السفياي، أثر القاضي عبد الوهاب على درس الفقهي المالكي بالغرب الإسلامي، مستلة من بحث قدم للمؤتمر العلمي الأول الذي نظّمته دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي ١٦- ٢٢ مارس ٢٠٠٣، ص ٣.
- (٩) الذخيرة...م.س.، ق، ٤، مج ١، ص ٥١٥.
- (١٠) المعيار المغربي، تخرج مجموعة من المحققين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨١، ج ١٠، ص ٩.

- (١١) المرقية العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠ م، دار الآفاق الجديدة، ص ٤٠.
- (١٢) المعيار...م.س.، ج ١، ص ٢٠٥.
- (١٣) البداية والنهاية، دار الريان للتراث ١٩٨٨، ج ١٢، ص ٣٥. وتفيد رواية النباهي أنه كان يعيش في بحبوحة من العيش في مصر وهو ما يفهم من قوله: "فحصل له بها حال من الدنيا"، المرقية العليا...م.س.، ص ٤١. لكن يبدو أن هذا الوصف لا يتعلق بوضعيته في بداية مجيئه إلى مصر حيث تكون الأحوال عادة صعبة في بداية الغربة.
- (١٤) القاضي عياض، المدارك...م.س.، ج ٧، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.
- (١٥) النباهي، المرقية...م.س.، ص ١٤٢.
- (١٦) القاضي عياض، المدارك...م.س.، ج ٨، ص ٧١ - ٧٤.
- (١٧) المرقية...م.س.، ص ٤١.
- (١٨) فهرست ابن عطية...م.س.، ص ٨٤.
- (١٩) القاضي عياض، كتاب الغنية، تحقيق ماهر زهير جرار، بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م (ط ١)، دار الغرب الإسلامي، ص ١٣٥.
- (٢٠) المصدر نفسه، ص ١٣٥.
- (٢١) فهرست ابن عطية...م.س.، ص ٨١.
- (٢٢) المرقية...م.س.، ص ٤١.
- (٢٣) كتاب الغنية...م.س.، ص ١٦٧.
- (٢٤) عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٧٩، ج ١، ص ١٠٦.
- (٢٥) قطب الريسوني، القاضي عبد الوهاب وأثره في المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي، مستلة من بحث قدم للمؤتمر العلمي الأول الذي نظّمته دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي ١٦- ٢٢ مارس ٢٠٠٣، ص ١٢.
- (٢٦) التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، طبعة فضالة - المحمدية ١٩٨٢ - ١٤٠٢ هـ (ط ٢)، ص ٦٦. ومن هذه الأبيات الشعرية:
فجد بالوصال فدتك النفوس فلسست على الحجر بالقادر
وفيك تعلمت نظم القريض فلقبني القوم بالشاعر
- (٢٧) الغنية...م.س.، ص ١١٤-١١٥.
- (٢٨) ابن بسام، الذخيرة...م.س.، ق، ٤، مج ١، ص ٥١٥.
- (٢٩) النباهي، المرقية...م.س.، ص ٤٠-٤٢.
- (٣٠) نفسه، ص ٤١.
- (٣١) نفسه، ص ٤٢.
- (٣٢) فهرست ابن عطية...م.س.، ص ٨٤.
- (٣٣) ابن بسام، الذخيرة...م.س.، ق، ٤، مج ١، ص ٥١٥-٥١٦.
- (٣٤) النباهي، المرقية...م.س.، ص ٤١.
- (٣٥) محمد بن عياض، التعريف...م.س.، ص ٦٦.
- (٣٦) الديباج المذهب، تحقيق محمد أبو النور، نشر دار التراث بمصر، ج ٢، ص ٢٦.
- (٣٧) التكملة لكتاب الصلة، نشر عزت العطار، طبعة القاهرة، ج ٢، ص ٦٧٣.
- (٣٨) الذيل والتكملة، السفر ٨، قسم الغريباء، تحقيق محمد بن شريفة، ص ١١٠.
- (٣٩) المعيار...م.س.، ج ١، ص ٢٧١، ج ٢، ص ١٠٩.
- (٤٠) نفسه، ص ٨٢.
- (٤١) نفسه، ج ١، ص ٢٠٤-٢٠٥.
- (٤٢) نفسه، ج ١، ص ٢٢٥.
- (٤٣) نفسه، ج ١، ص ٢٣١-٢٣٩.
- (٤٤) ابن رشد، فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار التليبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٧، ج ١، ص ٥٥٨ - ٥٦١.
- (٤٥) المعيار...م.س.، ج ٢، ص ١٠٩.
- (٤٦) نفسه، ج ٢، ص ٢٠٨.
- (٤٧) نفسه، ج ٥، ص ٣٧٦.
- (٤٨) نفسه، ج ١١، ص ٨٣.
- (٤٩) نفسه، ج ١١، ص ١٤٦.